

خواص الأجناس البشرية

وأثرها فى العقول

العوارض المختلفة التى تظهر فى الأشخاص وتميز بعضها من بعض أكثرها ناشئ من اختلاف الأجناس. فإن لكل جنس أوصافاً عامة تدل عليه، ومدنية خاصة تميزه من سواه فى طرق الفهم والإدراك. وإذا كانت أفراد الجنس الواحد تختلف بعض الاختلاف فى شىء من الصفات الخاصة فإنها تتفق فى الأوصاف العامة. فالجنس الآرى مثلاً الذى منه سكان أوروبا يختلف أفرادها بعضها عن بعض اختلافات بينة فى مجموع مدنياتها، ولكنها تتفق فى الأمور العامة، كالنوع الجرمانى الذى منه أكثر أمم النمسا وممالك ألمانيا ومعظم أهل أوروبا الوسطى. فأن هؤلاء من الجنس الآرى ولكن بينهم بعض الاختلافات فى تكوين مدنياتهم. والنوع اللاتينى فى جملته يميل إلى الرقة ولين الأخلاق، ودقة الفهم فى الفنون الجميلة، ويحب الحرية فى كل شىء، وليرغب كثيراً فى التقيد بالقوانين والقواعد، حتى فى العلوم، حساس، كثير الخيال، خفيف الروح، يميل إلى المجون، وله صبغة خاصة فى الفنون كالموسيقى والتصوير، فإنها عند الإيطاليين والفرنسيين أدق وأخف على النفس منها عند الجرمانيين، وهى أمتن وأبرع فى الصناعة وأضخم عند الجرمانيين منها عند جيرانهم. هذا مثل ضربناه، ومثل ذلك يقال فى المباحث العلمية والأدبية، فإن الطريقة الجرمانية تميل إلى القواعد والقوانين فى كل شىء، لأن الفكر الألمانى قاعدى، أى ميال إلى القوانين، وإلى بناء كل شىء على قاعدة، يرغب فى أن تكون الفنون كالعلوم ذات قواعد ثابتة لا تتغير.

والطريقة العلمية فى دراسة البلاغة ظهرت أولا فى ألمانيا. وتين ورينان وغيرهم من رؤساء الحركة الإيجابية والطرق العلمية فى البحث أخذوا ذلك عن الألمانين. هذه الفروقات نجدها أوضح وأكبر منها بين الأجناس. وقد أثبت العلماء والباحثون أن بين الأجناس وبين أفرادها فروقا عقلية فى كيفية الإدراك والتصور، فإن خصوبة العقول عند بعض الأجناس أكثر منها فى غيرها^(١).

فقد قالوا: إن الأمم التى هى أسبق من غيرها فى مضمار المدنية واكتسابها، والتى يظهر فيها التقدم والانتقال أسرع مما يظهر فى غيرها، تكون أعرق فى الحضارة. ومن هنا يظهر أن فى الأمم من هو أرقى من غيره، ومن هو أخط من سواه. ففى بعض الأمم أو فى بعض الأجناس نجد "الإنسانية" ومعناها أكثر منها فى غيرها. أى نجد ما يميز الإنسان من عقل وذكاء واستعداد للرقى وميل إلى العلوم والفنون والأدب أظهر. على حين أننا نجد الوقوف والحمول وعدم الاهتمام بالتربية فى جنس آخر^(٢).

(١) لاحظ الدكتور "جوستاف ليبون" أنه لو أخذ ألفا نفس أوروبى مصادفة بدون اختيار، وألفا هندى أيضا وجد أن خمسا وتسعين وتسعمائة من الأوربيين أقل فى استعدادهم الفطرى من الهنود. ولكن لوحظ أنه يوجد بين الأوربيين أنفسهم واحد أو أكثر من أصحاب القرائح والذكاء العظيم، الذين لا يوجد مثلهم فى الهنود. ومعنى هذا أن الفروق التى توجد بين الأجناس لا توزن بالمتوسط فى المجموع، بل فى أن الجنس الأقل ارتقاء لا يحتوى على أفراد كثيرين ممتازين من غيرهم فى الذكاء ولو كان المجموع فى نفسه أرقى من مجموع آخر، فإن الميزة تكون بنسبة النابغين.

(٢) قالوا وأكثر ما تكون هذه الفروق واضحة بين الجنس الأسود والجنس الأبيض. ولكن هذه الاختلافات ليست أصلية فى الإنسان ولا فجائية تحدث فى طبيعته، بل الأزمان والأقاليم هى التى كونت الإنسان وأثرت فيه وأوجدت هذه الفروق (كما أدرك ذلك ابن خلدون وله الفضل فى إدراك هذه الفكرة العلمية) وقد امتد هذا الاختلاف وانتشر فى الأجناس=

هذا الاختلاف الأصلي فى الأجناس سبب الاختلاف فى العقول
والتصورات والإدراكات، أو أنه دليل على تغيير النفوس واختلاف إدراكاتها.
وكل هذا يظهر فى اللغة وتكوينها.

قال تين فى مقدمة كتابه "تاريخ بلاغة الإنجليز" : إذ كان تصور الأمة
للأشياء تصوراً أفاً، كانت اللغة ضرباً من الرموز أو ما يقرب من ذلك، وكان
الدين عبارة عن عقيدة ساذجة، والشعر خيالاً "بسيطاً" وكانت الفلسفة أشبه
بشئ من النصائح والمواعظ، والعلوم مسائل مجموعة مرصوفة. وهذا يدل
على جفاء العقول وجمود الأفكار على ما تقرأ وتسمع : والأمة الصينية هى
مثال ذلك. فإذا كان الإدراك العام مرئاً، يشبه أن يكون خيالاً شعرياً، كانت
اللغة أشبه بالشعر والقصص، سهلة لينة، يكاد يدل كل لفظ منها على نفس
أو على إنسان لمرونتها وعذوبتها، وكان فى الدين والشعر شئ كثير من
العظمة والجلال، وانتشرت الأفكار الفلسفية انتشاراً عظيماً. وعلى حسب
ذلك يكون إدراك الجمال ودقة الفهم، وسعى العقول وراء الكمال فى تحقيق
ما تريد^(١).

=ومما بالتوارث ومرور الزمن عبر الخلق والخلق وما يتبع ذلك. قال الباحثون: إن مخ
الأوروبى وزن نحو ١٥٣٤ جراماً ومخ الأفريقى وزن ١٣٧١ جراماً ومخ الاسترالى وزن
١٢٢٨. وذكروا غير ذلك من الأوصاف مما يهم من يدرس علم الأعضاء ووظائفها.
وقالوا من أخلاق الزنوج الشهوات الحادة والميل إلى التقليد الأعمى والخوف من العزلة
والنقص فى قوة الاختراع والميل إلى عدم النظام الذى ظهر عندهم فى الغناء والرقص ثم
أنهم يخدعون بالظواهر ويحبون الزينة والألوان التى تبهر الأبصار. وعلى الجملة فالزنجر
إنسان شهوى ميال للسرور، ثرثار، لا يعرف الرزانة، ولا يفكر فى المستقبل، كسلان
خمل، وقالوا: أنه رغم ما فى الجنس الأسود من المزايا الإنسانية، فإنه لا يعرف عنه أثر
أدبى، ولا شئ من علامات التمدين.

(١) وقد وزن رنان فى كتابه "تاريخ اللغات السامية" بين الجنس السامى والجنس الآرى.=

إن مسألة الجنس من حيث أثرها فى الأمم وعقولها، مسألة غير مسلم بها على إطلاقها. ولا يمكن أن يسلم بها إنسان مفكر تسليمًا مطلقًا. لأن مذهب الفيلسوف تين فى ذلك مذهب أصبح الآن متهمًا بالمبالغة وعدم التحقيق. ولأن الحوادث أثبتت لنا أن بعض الشعوب الصغيرة التى اتخذها أصحاب هذا المذهب برهانًا ودليلاً على نظرياتهم ظهرت فيها قدرة تكاد تضارع أهل الجنس الأبيض. والحوادث والأيام تبرهن على تأييد هؤلاء. والحقيقة أن السبب فى هذا الاختلاف الذى نراه فى الأمم وتربيتها راجع إلى البيئة والحوادث. ونضرب لذلك مثلاً بحالة العرب قبل الإسلام وبعده: فقد كانوا فى جاهليتهم لا يعرفون عيشتهم الساذجة وحياتهم الفطرية، ولا يدركون من أحوال الاجتماع غير شن الغارات والحروب، وكان العربى ليس له إلا سيفه ورمحه ومركبه، ولم يكن من طبيعة بلاده أن تحرك من فكره، أو

=وقال أن الأمم السامية كلها على اختلاف نزعاتها أمم قصيرة الخيال جافة التصور، تدرك الأشياء إدراكًا أوليًا، ولا تتعمق فى بحثها، ولا تسترسل فى كشف الحقائق ومعرفتها، وتحكم على الأشياء لأول وهلة، حكم المعتقد الجازم بصحة الشئ الذى أفنعت التجارب والبراهين القطعية خيالاتها محدودة، وإدراكاتها محدودة، ونظاماتها الاجتماعية معروفة محدودة، لا تعرف التطور والانتقال، غير قابلة للمرونة، وغير أهل للتقدم، ليس فى نظمات حكومتها ما يدل على سعة الإدراك، ولا على أثر التفكير، وليس لها فى عالم الأدب والفنون أثر يذكر بالنسبة لما تركته الأمم الأخرى، مما يدل على مجدها ومظاهرها الرقى فى الاجتماع وفى باب الفنون. وقال أن الأمم السامية لا فلسفة لها ولا أثر للقوانين والنظمات عندها. وأن الشرائع التى أرشدت العالم ومحت منه ظلمات الجهالة لا وجود لها عند الأمم السامية. وقال أن ذلك كله يرى فى بلاغاتهم. ربما كان شئ من ذلك صحيحًا، وربما كانت الأمم السامية أقل من غيرها أثرًا فى العلم والفلسفة والأدب والاجتماع. ولكن هل هذا يدل على أن ذلك جاءهم من أصلهم السامى؟ إن رينان يبالغ فى مثل هذه المباحث وكأنه عدو لدود للأمم السامية.

توسع من خياله . فنشأ ونشأت أفكاره صورة صحيحة من البيئة التي كان يعيش فيها، ولم يعرف من العلوم والفلسفة إلا ما أوحى إليه نفسه وما دفعته الضرورة لمعرفة، ولم يتعلم من الفنون إلا جمال القول . وقد توارث ذلك عن آبائه وأجداده، وتعود هذا النوع من العيش، ومرت الأزمان والأيام وهو كذلك . فلم يكن له من الفرصة ما يمكنه من تغيير حاله، أو ما يدفعه إلى التقدم، أو ما يغير إدراكه وتصوره للحياة والاجتماع . ولبت على هذه الحال دهرًا طويلا . ولما جاء الإسلام وانتشر واختلط العرب بغيرهم، أخذوا عنهم النظمات وسنو الشرائع والقوانين، واكتسبوا من الدين وتعاليمه ما غير حالتهم الاجتماعية والسياسية واستفادوا من القرآن الحكم فائدة عظيمة، ونظموا الحكومات وأسسوا الممالك والجيوش، وغير ذلك .

ولما احتك الأمويين بالروم ومدنيتهم، أخذوا عنهم كثيرا من أبهة الملك ونظام الحكومة . وكان معاوية بن أبي سفيان الجند والحشم وتناسى العرب خشونة البدو، واعتادوا الرفاهية والحضارة . كذلك كان الأمر في الدولة العباسية: فقد اكتسب العرب مدنية الفرس وغيروا كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم، وأنواع الفهم والإدراك ونظام العيش والحكومة والاجتماع . وتهيأت عقولهم وأفكارهم لقبول فلسفة اليونان ومدنيتهم العقلية والمادية . وظهر فيهم العلماء والفلاسفة والمؤرخون، مما لم يكن له أثر قبل في عربيتهم العرباء . وارتقت معارفهم وزادت معلوماتهم، ووسعت إدراكاتهم كل ما طرأ عليهم من الخارج . وبالجملة تغيرت خواص جنسيتهم العامة، وأشبه استعدادهم استعداد الأمم الأخرى، ولم يمنعهم جنسهم من الاندماج في غيرهم والأخذ عنهم، ومشابھتهم بعض الشبه لهم . ولولا الدين وسلطانه

وغلبته على نفوس المسلمين لاندمجوا اندماجاً كلياً فى غيرهم، ولتغيرت عقائدهم وحالتهم الاجتماعية تغيراً تاماً. وعرب الأندلس كانوا غير عرب أفريقية، وهؤلاء كانوا غير سكان نجد والحجاز، على أنهم كلهم من جنس واحد وأصل واحد.

من أجل ذلك لا يصح النظر إلى مسألة الجنس والأخذ بها على إطلاقها. لأن المؤثر الأصيل فى تكوين الجنس هو البيئة. إذ الجنس أو الأصل الواحد، معناه أن جماعة سكنوا مكاناً واحداً، أو منطقة واحدة، تشابهوا فى كثير من العادات والأخلاق العامة وطرق الفهم والإدراك، مما كونه البيئة فى أخلاقهم واستعداداتهم على شكل خاص. وجاءهم هذا التكوين بمرور الأزمان واختلاف الأحقاب، فاندمجوا فى البيئة التى تربوا فيها. فإن عوارض ومميزات الجنس الأسود مثلاً تحتاج إلى مئات من السنين لتتكون هذا التكوين الخاص الذى هو من طبيعة الأقاليم، ثم يتوارث بعض الأفراد عن بعض ذلك حتى تصبح هذه الأوصاف صفة لازمة للسكان.

هذا هو الأصل فى مسألة الجنس. ونحن نرى أن الإنسان يمكنه أن يعيش فى اجتماع غير اجتماعه الأصيل فتختلف إدراكاته ومواهبه، لأن الإنسان حيوان مقلد أكثر منه ناطقاً. وعلى ذلك يجب أن تكوين البيئة سابقة للجنس لا العكس. إذا لأجل أن يتكون الجنس بأوصافه لابد من أن يبقى الإنسان فى بيئة خاصة مدة طويلة ليتشكل بشكلها. وليس الغرض من البيئة البيئة الجغرافية فقط، بل ذلك يشمل البيئة الاجتماعية أيضاً فإن أثر الاجتماع فى الأفكار لا يقل عن أثر الأقاليم فيها. إذ القسيس أو المتدين الذى تربى فى بيئة تربية دينية هو غير العالم الذى تربى فى بيئة علمية. فلا يمكن قبول رأى

تين على ظاهرة من أن الجنس له أثر خاص بدون أن ننظر إلى أثر الأزمان والبيئات فى ذلك .

لا شك فى أن الآداب السامية غير الآداب الآرية وأن العقول والأفكار عند السامعين غيرها عند الآريين . ولكن أليس معنى ذلك أن تصور السامى وتربيته وتعليمه غيرها عند الآرى؟ وهل ذلك غير أثر البيئة وتأثير الإقليم؟ . فإذا كان الشعر العربى غير الشعر اليونانى مثلاً فذلك لأن حياة العربى جملته على هذا النوع من الخيال . وربما كانت هناك أسباب تاريخية واجتماعية جعلته لا يتصور ولا يفهم إلا على هذا النحو . وربما لم يكن العربى فى حاجة إلى أنواع الحكومات المنتظمة والقوانين المسنونة ، لأنه كان يعيش عيشة ابن السبيل ، ولو كان ذلك ضرورياً لحفظ حياته ونظامها حملته الضرورة على الفكر والاستنباط والابتكار لمثل هذه الأشياء .

وسواء أصح مذهب تين أم لم يصح فى أثر الجنس فى الأمم فمما لا نزاع فيه أننا نجد اختلافات ظاهرة فى الأمم المختلفة من حيث العلوم والمعارف ، ومن حيث التصور والإدراك . وهذا كله يظهر فى آداب الأمم وبلاغاتها لأن الأدب تابع لكل هذه المؤثرات ، فهو يتغير بتغيرها ، ويتشكل بأشكالها ، لأنه صورة عامة من صور الأمم وحياتها . وذلك كله تابع لاختلاف الفطر وأسبابها فى الإنسان .
